القيم والحقوق الإنسانية

بين الإسلام والمواثيق الدولية

د.السيد رزق الحجر (*)

مقدمة

تعتبر القيم الأخلاقية أحد الموضوعات الرئيسية للفلسفة في تصنيفها التقليدي الموروث عن اليونان، فالمعروف أن أرسطو قد قسم الفلسفة إلى قسمين رئيسين وهذا ما أوضحه ابن سينا حين قرر -موافقًا لأرسطو- أن العلوم الحكمية تتفرع إلى فرعين أولهما الحكمة النظرية، وثانيهما الحكمة العملية، وكل منهما يتضمن ثلاثة فروع، فالحكمة النظرية تتضمن العلم الإلهي، وهو أعلاها، والعلم الرياضي، وهو أوسطها، والعلم الطبيعي، وهو أدناها. والحكمة العملية تشتمل على ثلاثة فنون أحدها فن إدارة المدينة وهو علم السياسة، وثانيها فن إدارة المنزل وهو علم الاقتصاد، وثالثها فن تهذيب النفس، وهو علم الأخلاق. وهكذا اعتبرت الأخلاق لدى فلاسفة اليونان ولدى فلاسفة الإسلام من بعدهم وفي الفلسفة المسيحية في العصور جزءًا من الفلسفة. وعلى هذا جرى الاتجاه التقليدي في تصنيف العلوم في الفلسفات الحديثة، إذ حصر موضوعات الفلسفة في مبحث الوجود (الانطولوجيا)، والكون (الكوسمولوجيا)، والمعرفة (الابستمولوجيا) ثم مبحث القيم الأخلاقية.

لذا كان من الضروري أن نتعرف على رأي الفلاسفة في القيم، وعلى هذه القيم في المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وأن نتعرف عليها كذلك من خلال الإسلام لنعقد مقارنة بين آراء الفلاسفة ومواثيق حقوق الإنسان، ثم مقارنة أخرى بين القيم في المواثيق الدولية لحقوق الإنسان وفي الاسلام.

(*). أستاذ الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة. مصر

وعلى هذا فسوف يأتى البحث في محورين أساسيين، وتحت كل منهما عددا من المباحث على النحو التالي: "المحور الأول": القيم الأخلاقية بين الفلاسفة ومواثيق حقوق الإنسان، ويتضمن مبحثين: الأول/ القيم الأخلاقية عند الفلاسفة، الثاني/ القيم الأخلاقية في مواثيق حقوق الإنسان. أما المحور الثاني فعن: "القيم الأخلاقية في الإسلام"، ويأتي في مبحثين: الأول/ القيم الأخلاقية وطبيعتها في الإسلام، وفيه نقف على طبيعة القيم الأخلاقية في الإسلام ومصدرها ومدى واقعيتها. و الثاني/ "مقارنة بين القيم الإسلامية ومواثيق حقوق الإنسان". وفي هذه المقارنة نكشف عن خصائص الأخلاق وطبيعتها في الجانبين.

المحور الأول

القيم الأخلاقية بين الفلاسفة ومواثيق حقوق الإنسان

المبحث الأول: القيم الأخلاقية عند الفلاسفة

أ. الفلسفات القديمة

اهتم الفلاسفة بدراسة الأخلاق منذ الماضي السحيق كما يتجلى ذلك في التراث الفكري الذي خلفته حضارات الشرق القديم، وفى التراث الذى خلفته الحضارة اليونانية. فإذا اتجهنا إلى التراث الشرقي فإننا نقف –على عكس ما شاع لدى الكثير من الباحثين غربيين وشرقيين– على نظرات عميقة وأصيلة في "الأخلاق"، رغم ما تعرضت له هذه الدراسات من اهمال نتيجة الجهل بها أو تجاهلها، ولنستمع إلى واحد من كبار مؤرخى العلم من الغربيين وهو ينحي باللائمة على المؤرخين الذين تجاهلوا دور الشرق في بناء الفكر، وتجاهلوا– تبعًا لذلك– تأثر اليونانيين بالشرقيين، وخاصة الحضارة المصرية، وبلاد ما وراء النهرين[1].

وتفيد نصوص اليونانيين أنفسهم أن قدماء المصريين كانوا ينظرون إلى اليونانيين –الذين كانوا يحضرون إلى مصر للتعليم– على أنهم صغار، بل أطفال في مجال الحضارة والمعرفة[2].

يتضح ذلك فيا يحكيه أفلاطون نفسه في حديثه عن رحلة "صولون" إلى مصر، فقد دهش عند حضوره إليها من عظمة آثارها التى عجز عن معرفة

([1]). جورج سارتون: تاريخ العلم، الطبعة الرابعة، دار المعارف سنة ١٩٧٩، صـ١– ٢٠.

([2]). عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق، دار الهانى، القاهرة، ٢٠٠٥، صـ٣٤.

أسرارها. وعندما يحاول أن يستعرض أمام الكهنة أمجاد اليونان، صاح فيه أحدهم: إنكم يا معشر الإغريق ما زلتم أطفالاً، فليس في اليونان شيوخ. فسأله "صالون" ماذا تقصد؟ فرد عليه الكاهن المصري: إن مداركم ما زالت شابة، ذلك لأنكم لا تملكون قيمًا من التقاليد، ولا من المعارف ما شيبها الزمن"[1]

فإذا توجهنا إلى تراث المصريين القدماء أمكننا أن نقف فيه على أهم المشكلات الأخلاقية المتعلقة بالخير والشر مطبقة -كما يقول "توملين"- على الحياة ذاتها، ومشكلات الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشرى.. ولم يكن تناولهم لتلك المشكلات في شكل وصايا أو مواعظ أخلاقية، بل إن في استطاعة الباحثين أن يتعقبوا ما يمكن اعتباره أول مفهوم أخلاقي تجريدى صورته الإنسانية، وهو المفهوم الدال على الاستقامة أو العدالة، ولم يكن حديثهم عن هذه المفاهيم مشوبًا بغموض أو فاقد النضج، وإنما يمكن وصفه بأنه يمثل فكرًا أصيلًا[2].

هذه الفكرة، فكرة اهتمام المصريين منذ قرابة ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد بدراسة أصل الخير والشر، والضمير الخلقي وغيرها من مباحث الأخلاق – هذه الفكرة يؤكدها ويستدل عليها العديد من مشاهير الباحثيين الغربيين من أمثال "جيمس بريستد" و "جورج سارتون" و "توملين" وغيرهم[3].

---

(1). سيرج سونيرون: كهان مصر القديمة، ترجمة: زينب الكردي، مراجعة د.أحمد بدوي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٥، صـ١٢٤

(2). أ.و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة: عبد الحميد سليم، دار المعارف، ١٩٨٠، صـ٣٠.

(3). أنظر لهم على الترتيب: تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة: زكي سوس، دار الكرنك، صـ٢٣٩. تاريخ العلم، دار المعارف، ١٩٧٥، مصر. وفلاسفة الشرق، صـ٥١.

وهكذا، وعلى أيدى عدد من المفكرين الغربيين الكبار عاد لفكر الشرق فلسفته واعتباره ومشروعيته في تاريخ الفكر، وظهرت تلك الحقيقة المهمة، وهى أن المفكرين الشرقيين من مصر والهند وفارس وفلسطين هم -كما يقول هنرى توماس- الذين فجروا الينابيع التي منها هبط الوحى على اللاسفة اليونانيين ومن جاءوا بعدهم" ويضيف: "إنه من المستحيل أن نفهم حكمة أفلاطون واسبينوزا وشوبنهاور وكانط ونيتشه وبرجسون وأمرسون وجيمس من غير أن نقف على حكمة الشرق"[1].

وفيما يلى نستعرض بإيجاز أهم القيم الأخلاقية التى تضمنها الفكر المصرى القديم كنموذج للحضارات الشرقية التى لا يتسع المقام للحديث عنها.

١. **<u>قيمة الحق والجمال:</u>**

إذا كان مشاهير الفلسفة اليونانية قد احتفوا بالحق وأعطوه أهمية كبرى وجعلوه على رأس القيم الثلاث الخالدة (الحق، الخير، الجمال)، فإن حكماء مصصر قد عبروا -منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد- عن جمال الحق وخلوده وثباته، ونبهوا إلى وجوب التمسك به، والسير وفق قوانينه، مازجين بين "الحق" و "الجمال" فى لوحة أخلاقية رائعة يورثها الرجل الفاضل لأبنائه. فالحق -كما عبرت عنه وصايا "بتاح حوتب"- جميل، وقيمة خالدة، ولم يتزحزح من مكانه منذ خلق، لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه... وقد تذهب المصائب بالثروة، ولكن الحق لا يذهب، والرجل المستقيم يقول عنه: إنه متاع والدي، ورثته عنه.

الحق أحق أن يتبع، حتى ولو جلب الضرر لمن يتبعه ويتمسك به، وتعلق بأهداب الحق... ولا تتخطاه، حتى ولو كان التقرير الذى تقدمه لا يسر القلب".

([1]). هنرى توماس: أعلام الفلاسفة: ترجمة / مترى أمين، دار النهضة، ١٩٦٤، صـ ١٦. والوقوف على المزيد من التفاصيل في ذلك أنظر السيد الحجر: الله والإنسان في الفكر المصري القديم، بحث منشور بمجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد ١٤، ٢٠٠٥.

والحق والنظر العقلى متلازمان، فإذا كان الحق أحسن ما يفخر به الرجل من ميراث أبيه، فإن النظرة العقلية -كما يقول بتاح حوتب- هى أحسن ميراث أتركه لابني". وهكذا يربط الفكر المصري القديم بين قيم "الحق" و "الفكر" (نظر العقل)، والجمال برباط متين يندر العثور على مثله في هذا الماضى السحيق.

٢. الصدق والإخلاص:

حفل كتاب "الموتى" بنصوص تكشف عن قيمة "الصدق" وتشدد على التمسك به، وتبين أن من يفرط فيها يتعرض لأشد أنواع العقاب في الآخرة، ففي عقيدة المصريين القدماء -كما تسجل ذلك نصوص الأهرام، وكتاب الموتى- أن الروح تتجه بعد الموت إلى وادى سحيق بواسطة نهر الدينونة الرهيب، حيث توجد محكمة الموتى المعروف بمحكمة "أوزوريس"، وأمام هذه المحكمة تمثل الروح وتنهال عليها الأسئلة التى منها:

-هل ارتكبت جريمة ما؟ -هل نطق لسانك بالكذب؟ وشهدت بالزور؟ - هل غدرت بجارك؟ -هل أحببت قريبك كنفسك؟. فاعتقاد المصريين القدماء بأنهم يومًا ما لابد متعرضون لهذه الأسئلة، يكشف بوضوح ضرورة التحلى بالصدق والوفاء والإخلاص. وبدون ذلك لا يستطيع الواحد منهم أن يقف في ثبات أمام محكمة العدل الإلهية معلنًا: "ها أنا ذا أعاين جمالك، ولم أرتكب الظلم في الناس، لم أقتل ولم آمر بالقتل، ولم أكذب ولا أذكر أننى خنت أحدًا. ولم أطفف كيل القمح، ولم أغش في قياس الذراع، وفى حد الحقل، ولم أضغط على قبض الميزان...". وفي حكم "أمينوبي" يشير إلى عدد من الفضائل التى يجب على كل إنسان أن يتحلى بها معللا ذلك بأن: "الله يمقت الرجل الكاذب"، وأكبر ما يمقته الرجل ذو القلبين".

في بردية ترجع إلى الألف الأول قبل الميلاد -وهى محفوظة بمتحف لندن- ينعى كاتبها ضياع الصدق، وإنعدام الإخلاص وتبدل الأخلاق: "لمن

أتكلم اليوم؟ الأخوة سوء، والأصدقاء خونة.. فالقلوب إنحازت إلى اللصوصية... والخائن صار أمينًا، والأمين عدوا". ولا شك أن ربط الكذب والنفاق -في الفكر المصرى القديم- بمقت الله وغضبه والتعرض لعقابه لمما يعطى لفضائل الصدق والإخلاص رسوخًا فى المجتمع وتحققًا فعليًا بين أفراده.

٣. **العدالة:**

العدالة بمعناها الشامل تمثل قيمة كبرى، وفضيلة أخلاقية سامية من الفضائل التى عنى بها التراث المصرى القديم، وهى فضيلة تشمل الجانب السياسي، والجانب القضائي، والجانب الاجتماعي والشخصي. فالحاكم لا يكون صالحًا إلا إذا تحققت فيه تلك الفضيلة، وكان قادرًا على إرساء دعائم العدل والمساواة بين الناس، ففي التأملات التى كتبها ملك "هيراقليوبولس" إلى ولده يقول: "سينصلح حال الحاكم ذى العقلية التى لا تعرف المحاباة، لأن الاحترام ينتقل من قصر الحاكم إلى خارجه"[1].

عدالة الحاكم تستلزم أن يختار قضائه وولاته وموظفيه ممن يتوفر فيهم هذا الخلق، والقاضى لا يكون عادلًا إلا إذا توفر له ما يكفيه وما يغنيه عن التطلع لما هو في أيدي الأخرين. يقول هذا الملك الفيلسوف: "من هو غنى في بيت أبيه لا يظهر محاباة، فإن من يقول: لو كان لى كذا، لن يكون منصفًا، ويحابى من يستطيع مكافأته...". وهكذا وضع الأخلاقيون فى مصر القديمة منذ زمن بعيد الأسس التى تتضمن عدالة الحاكم والوالى والقاضى، وهى أن يكون لديه ما يغنيه عما فى أيدى الناس. والعدالة تتطلب المساواة بين الناس، وإنزالهم منازلهم، لا على أسس من شرف الحسب والنسب والغنى ونحو ذلك، ولكن على أساس ما لدى كل منهم من مواهب وإمكانيات، ففي تأملات ذلك

---

(1). البردية التى تضمنت هذه التأملات يرجع تاريخها إلى ألفى سنة قبل الميلاد، وهى محفوظة بمتحف لينجراد.

الحكيم ترد الوصية: "لا ترفع ابن شخصية مهمة على شخص عادى، ولكن إختر لنفسك رجلًا بناء على ما يتمتع به من قدرة".

العدالة في الفكر المصرى -كما أشرنا من قبل- ليست فضيلة تخص الحكام والقضاه وحدهم وإنما هى خلق يجب أن يتحلى بها كل فرد بحيث يكون وازعًا ورادعًا له عن ظلم الآخرين، ففي وصايا الحكيم "أمينوبي" نقرأ له قوله: "لا تزحزحن الحد الفاصل بين الحقول، ولا تكون جشعًا من أجل ذراع من الأرض، ولا تتعدين على حد أرملة، وارقب من يفعل ذلك... فبيته لعدو البلد، وأملاكه تؤخذ من أيدى أطفاله، ومتاعه يعطاه غيره". فالحكيم المصرى هنا ينهى عن ظلم الناس بعضهم بعضًا، ويبين عاقبة الظالمين ومصيرهم بشكل يبعث فى النفوس الخوف من الوقوع فى الظلم، وأى خوف أشد من خوف الرجل على أبنائه الذين سيفقدون حتمًا ما جمعه لهم أبوهم عن طريق ظلم الآخرين[1]. ويتسع مفهوم العدل فى الأخلاق القديمة ليشمل عدل الرجل مع أهل منزله، لا سيما زوجته، يبين ما جاء في وصايا "بتاح حتب": "إذا كنت رجلًا ناجحًا فوطد حياتك المنزلية، وأحب زوجتك في البيت كما يجب... إشبع جوفها واستر ظهرها، واجعل قلبها فرحًا ما دمت حيًا..". والحق أن المقام يطول بنا كثيرًا لو رحنا نتقصى كل مظاهر "العدالة" كما ورت فى فكر الأخلاقيين المصريين، وحسبنا في هذا المقام أن نؤكد على أن "العدل" عندهم يبدأ من الحاكم ويمتد إلى قضائه وولاته وموظفيه، لأن الاحترام -كما نصت على ذلك تأملات ملك "هيراقليوبوليس"- ينتقل من قصر الحاكم إلى خارجه[2]،

([1]). يذكر هذا المعنى بما ورد فى القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وليخشن الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا. إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرا﴾ النساء: ٩

([2]). تتضمن هذه العبارة معنى المقولة المشهورة: "الناس على دين ملوكهم".

ويمتد العدل كذلك ليشمل عدل الإنسان مع غيره من الناس، وعدله مع نفسه، وكذلك في معملته لأبنائه وزوجته.

٤. **العفة:**

ترتقى الأخلاق إلى قمة سامقة عندما يتحدث المفكرون المصريون القدماء عن فضيلة العفة وكبح هوى النفس، وقد تناول حديثهم عن هذه الفضيلة عفة البطن، وعفة الفرج. ففي مقام عفة البطن والزهد عما فى أيدى الناس نقرأ قول أحدهم: "إذا أردت أن يكون خلقك محمودًا، وأن تحرر نفسك من كل قبيح، فاحذر الشراهة، فإنها مرض عضال لا يرجى شفاؤه، والصداقة معها مستحيلة..". "ولا تكن جشعًا من أجل ذراع من الأرض، ولا تتعدين على حد أرملة". وسنستمع لآخر ينعى على الناس فسادهم وعدم تعففهم عما فى أيدي الآخرين: "لمن اتكلم اليوم، فالقلوب إنحازت إلى اللصوصية، واغتصب الإنسان متاع جاره، الناس يسرقون، كل الناس يسرقون".

فى وصايا "أمينوبي" يقول: "لا تطأن حرث الغير، إحرث الحقول حتى تجد حاجتك وتأخذ من جرنك الخاص، والمكيال الذى يعطيك الله خير لك من خمسة آلاف تكتسبها بالبغي". وفى مقام الفرج يحذر: "بتاح حتب" من الاختلاط بالنساء ويقرر أن ذلك مصدر كل شر، وسبب تدمير كل معانى الصداقة، ومنشأ العداء وطريق الهلاك. يقول في ذلك: "إذا أردت أن تحافظ على الصداقة في بيت تدخله سواء أكنت سيدًا، أم أخًا، أم صاحبًا، فحاذر القرب من النساء، فإن المكان الذى يكن به ليس بالحسن، ومن الحكمة إذًا ألا تحشر نفسك معهن ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم".

يؤكد نفس المعنى محذرًا من فتنة النساء في قوله: "عندما يفتتن الإنسان بأعضائهن البراقة.. فإنها تصير بعد ذلك مثل حجر "هرست" –أى شيئًا تافهًا–

والأمر لحظة وجيزة مثل الحلم.. والموت يأتى بعده فى النهاية...". وهكذا لا نملك إزاء هذا الحديث المستفيض عن قيمة "العفاف" -وما سبقها من قيم وآداب أخلاقية- إلا أن نؤكد ما قرره "بريستيد" وهو أن الفكر الأخلاقى في مصر القديمة قد بلغ القمة من تقدير الضمير، والاحساس برقابة الله[1]. وأن الانتشار الواسع لهذا الفكر عن العلاقة بين الله والإنسان، يفتح لنا -كما يقول "بريستيد"- ذلك الموضوع الواسع، هو تأثير التطور المصري الخلفى القديم، لا فى تاريخ الإنسان القديم فحسب، بل فى تاريخ المدنية الغربية أيضًا[2].

قبل أن ننهي هذا الموضوع لابد أن نشير إلى أن الفكر الخلقي في مصر القديمة لم يعن فقط بما ذكرنا من قيم الحق والخير والجمال والصدق والإخلاص والوفاء والعدل والمساواة والعفاف، وإنما تناول كذلك العلاقات السوية داخل الأسرة بإعتبار أن الفرد السوى الفاضل هو نتاج الأسرة الفاضلة: "إننى لا أقول كذبًا، لأنى إنسانًا محبوبًا من والده، ممدوحًا من والدته، حسن السلوك مع أخيه، ودودًا مع أخته"[3]. وتناول كذلك العطف على البؤساء والمحتاجين.. "الله يحب الذى يدخل السرور على قلب المسكين، أكثر من الذى يحترم الرجل العظيم".

كذلك تناول هذا الفكر -بدرجة عالية من التسامى والاستيعاب، فضيلة التواضع وعدم السخرية من الآخرين، أو التقليل من شأنهم، لأن الله هو الذى يرفع ويخفض: "لا تضحكن من رجل أعمى، ولا تهزأن بقزم، ولا تستهزئن برجل في يد الله، ولا تقسون عليه عندما يبغى، فالبشر من طين وقش، والله بانيهم، فهو يهدم ويبنى كل يوم، يخفض آلافًا كما يشاء وآلافًا يرفعهم...".

([1]). فجر الضمير: صـ٣٤٥

([2]). المرجع السابق: صـ٣٥٥

([3]). المرجع السابق: صـ١٣٠.

وأخيرًا تحدث الفكر المصرى عن قيمة العدل، وأكد على أن يأكل الإنسان من كسب يده، وغير ذلك من الفضائل التى تحتاج في الحقيقة إلى بحث خاص بها. ولا شك أن موضوع الأخلاق فى الفكر المصرى القديم يؤكد ما قلناه من قبل وهو أن هذا الفكر قد تمثل الكثير من آثار ابـراهيم ويوسـف وموسـى وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

إذا تركنا فلسفة الشرق القديم وقيمه الأخلاقية -وقد عرضنا حكمة مـصر القديمة نموذجًا- وانتقلنا إلى فلسفة اليونا فسوف نلتقى بموقف مشهور فى هذه الفلسفة إبان عصر فلاسفتها الكبار (سقراط وأفلاطون وأرسطو)، ويتمثل فـي الحوار أو الجدل الذى دار بين السوقسطائيين وسقراط، فقد كشف هذا الجـدل عن اتجهاتهم فى المعرفة وفى الأخلاق معًا، وعن هذين الاتجـاهين أخـذت معظم المذاهب الفلسفية في الفلسفات الحديثة. فالسوفسطائيون قد ردوا المعرفة إلى الحس وحده فشكوا بذلك فى المعرفة، وأنكروا القول بوجود حقائق ثابتـة يمكن أن تكون موضوعًا للعلم، ورتبوا على ذلك فى مجال الأخـلاق رفـض القول بوجود قيم أخلاقية ثابتة، فالإنسان -في رأيهم- مقياس كل شيء، ومـا دام الأمر كذلك فإن الأشياء هى كما تبدو له، فما يراه واحد من النـاس فهـو حق، ولكن بالنسبة له وحده وما يراه غيره باطلًا فهو باطل، ولكن بالنسبة لـه وحده، وما دامت الحقائق نسبية فإنه يمتنع العلم، ولا يكون هناك كذلك مجـال للقيم الأخلاقية[1].

أما سقراط فقد رفض تلك الآراء التى نادى بها السوفسطائيون، وأكد على وجود الحقائق الثابتة للأشياء، وأن هناك ما هو حق أو صواب أو خير قـائم بذاته، وقرر أن المعرفة هى الأساس الوحيد لكل خير وفضيلة، وبهذا وضـع سقراط -ومن بعده أفلاطون وأرسطو- نواة المذهب العقلى الذى تجلى فيمـا

([1]). عبدالرحمن بدوى: ربيع الفكر اليوناني، صـ١٥٦. وقارن "اسـتيس" تـاريخ الفلـسفة اليونانية، صـ٢. وكذلك توفيق الطويل: أسس الفلسفة، صـ٣١٣

بعد فى الفلسفة المثالية في العصور الحديثة. كما يمكن اعتبار السوفسطائيين هم نواة الفلسفات الحياتية التجريبية التى ظهرت في هذه العصور. وإذا كان سقراط بأرائه التى أعلنها فى مواجهة السوفسطائيين قد أقام للعلم بناءًا ووضع للأخلاق أساسًا، فإن تلميذه أفلاطون ومن بعده أرسطو كانا أكثر الفلاسفة اليونانيين تأثيرًا فيمن بعدهم من الفلاسفة، وقد عبر "برتراندرسل" عن هذه الحقيقة بقوله: "إن أفلاطون وأرسطو هما أعمق الفلاسفة أثرًا، قديمًا وحديثًا". لكنه يقدم أفلاطون على أرسطو في ذلك كما يتضح فى قوله: "من الضرورى -إذًا- فى تاريخ الفكر الفلسفى أن يعالج أفلاطون -وأرسطو بدرجة أقل منه- معالجة أوفى مما نعالج به أى فيلسوف آخر سبقوهم أو لحقوهم"[1].

والآن -وقد عرفنا من قبل ما خلفته الفلسفات الأخلاقية فى الشرق القديم من قيم أخلاقية كما رأينا فى النموذج المصري- الآن نتساءل عما خلفه الفلاسفة اليونانيين حول القيم.

لقد تحدث أفلاطون عن مجموعة من القيم أو الفضائل الأخلاقية أولها وأعلاها فضيلة العدالة، فالفيلسوف الذى يحظى بمعرفة عالم المثل يتحقق كما يذكر أفلاطون بالفضيلة العليا، وهى التى يسميها "العدالة" ومتى تم للنفس التحقق للعدالة عن طريق هذه المعرفة فإنها تتوصل إلى ثلاث فضائل أخرى، وهى -كما يذكر فى الجمهورية- الفضائل التى تنسب لقوى النفس الثلاث: العفة، والشجاعة، والحكمة. فالعفة هى فضيلة القوة الشهوانية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والحكمة فضيلة القوة العاقلة.

أما "العدالة" فتتحقق نتيجة لتوفر هذه الفضائل الثلاث، وانتظام علاقتها ببعضها بحيث تخضع القوة الشهوانية للقوة الغضبية، وهذه بدورها تخضع

([1]). رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، صـ١: ١٦٩ نقلًا عن عبد الحميد مدكور: دراسات فى علم الأخلاق.

للقوة العاقلة[1] ويترتب على تحقق التوازن، أى العدالة بين قوى النفس وفضائله حصول النفس على السعادة. والعدالة – فيما يرى أفلاطون- حالة باطنية "عقلية أخلاقية تتجاوب مع النظام فى العالم المحسوس، ويبدو فيها جمال النفس وصحتها وسيطرة الجزء الالهى فيها على الشهوات ورغبات الجسد، وهذا هو الوضع الذى ينبغى أن يكون عليه الإنسان، والشخص العادل هو الذى لا يشك فى صحة مبادئه أبدًا حتى ولو هدده طاغية بالموت صلبًا، أو رأى الظلم ينتصر ويسوده، والسعادة الحقيقية هى فى ممارسة أسمى فضيلة للنفس وهى الحكمة[2].

وبعد أن تعرفنا على أهم القيم الأخلاقية فى الحضارات القديمة شرقية وغربية ننتقل إلى الحديث عن موقف الفلسفات الحديثة من القيم الأخلاقية:

القيم الأخلاقية في الفلسفات الحديثة:

الواقع أن مواقف الفلسفة الحديثة تتنوع فى موضوع القيم تنوعًا كبيرًا، ويبدو فى مذاهبها قدر كبير من التعارض، فهناك اتجاه يعلى من شأن القيم الأخلاقية ويصفها بالاطلاق والكلية والشمول والثبات وهو الاتجاه المثالى الذى تمتد جذوره إلى الفلسفة العقلية عند سقراط وأفلاطون وأرسطو، وتسرى فى المذاهب الفلسفية خلال العصور الوسطى حتى تتجلى -بعد نهضة أوربا- فى فلسفة ديكارت وتلاميذته من أمثال اسبينوزا وليبنتز ومالبرانش إلى أن تظهر فى الفلسفة المثالية الألمانية عند كانط، حيث بلغت المثالية (العقلية الحدسية) ذروتها فى رفض كانط لربط الأخلاقية بنتائج الأفعال من لذات أو آلام أو

---

(1). أميرة حلمى مطر: الفلسفة اليونانية، تاريخها ومشكلاتها، وحدة الطبع والتصوير، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، ١٩٨٨، صـ٢٢٠. وقارن أبوريان: تاريخ الفكر الفلسفى، طبـ٢، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥-١/ ٢٣٩

(2). أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى، ٢٤١/١. وقارن مصطفى حلمى: الأخلاق، صـ٣٩.

منافع أو مضار، وقرر أن الخيرية هى صفة لإرادة وحدها، فلا شيء غيرها يمكن أن يكون خيرًا فى ذاته[1].

وهناك اتجاه آخر ينكر وصف القيم الأخلاقية بالإطلاق والثبات والكلية والشمول، ويرفض ما ذهب إليه المثاليون من اعتبار القانون الأخلاقى قانونًا أوليًا، قبليًا، سابقًا على التجربة، وهذا هو اتجاه الطبيعيين الذين -رغم تعدد مدارسهم بين حسيين وتجريبيين واجتماعيين ووضعيين ونفعيين- يتفقون على رد الأخلاق إلى الحس والتجربة، ومن أشهر فلاسفة هذا الاتجاه جون لوك، وديفيد هيوم، وشافتسبرى، وهاتشيسون، وآدم سميث، إلى جانب أوجست كونت ودوركايم، وليفى بريل، وغيرهم من علماء الاجتماع، وكذا أنصار مذهب اللذة، ومذهب المنفعة.. إلخ ولا يتسع المقام لعرض تفاصيل هذه المدارس والمذاهب الفلسفية ويكفى أن نعلم أنهم جميعًا يرفضون أصول الاتجاه المثالى فى الأخلاق كما أنهم رفضوا أصوله فى الفلسفة عمومًا.

إلى جانب هؤلاء شهد تاريخ الفلسفة الغربية آراء تنكر القيم الأخلاقية العليا -مطلقة كانت أو نسبية- وتعتبرها وهما، كالماركسيين الذين أرجعوا كل شيء إلى العامل الاقتصادى واعتبروه الموجه لتاريخ العالم، والمتحكم فى تطوره، وبالتالى فى تحديد أساليب المجتمعات وتطورها. والقيم العليا التى يتحدث عنها المثاليون لا ترجع فى رأى أتباع الماركسية إلى الله، كما أنها لا ترد إلى العقل الإنساني حيث أن عالم العقل كله ينشأ -فى رأيهم- عن النظام الاقتصادى[2].

([1]). أنظر: ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية . و توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق. و رزق الحجر: نقض منطق أرسطو بين المسلمين ومفكرى الغرب

([2]). توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق، نشأتها وتطورها، طبـ٤، دار النهضة العربية، ١٩٧٩، صـ٥٠٩ وما بعدها.

كذلك فهم أنصار الفلسفة البراجماتية من الأمريكان القيم فهمًا خاصًا يربط بين القيمة وما يترتب عليها من منافع عملية، حتى وإن كانت هذه القيمة مرفوضة من العقل، فالحق أو الخير -فما يرى زعيم هذه الفلسفة العملية "وليم جيمس"- كورقة النقد الزائفة، تظل صالحة لإستعمال حتى ينتشر زيفها، وهذا ما أكده من بعده "جون ديوى" وهو من مفكرى القرن العشرين. بل إن الفيلسوف الألمانى "نيتشه" -يوافقه فى ذلك أصحابه ممن اعتنقوا نظرية "دارون" فى التطور- قد قلب جدول القيم التى تواضع عليها الدين، وارتضاها الناس من قديم الزمن، وقد جعل "إرادة القوة" مدار فلسفته، وانتهى به تطبيق قانون التطور على حياة الإنسان المتمدين إلى احتقار الرحمة والصبر والدعة.. وتمجيد القسوة والظلم والقوة، وتوكيد الذات... وبذلك هدم التصور المألوف للقيم[1].

يضاف إلى ذلك موقف الفلسفة الوجودية التى تنكر الوجودية التي تنكر القيم الإنسانية العليا "سيان منها ما فرضه العرف الاجتماعى، أو أملاه المعتقد الدينى أو أوجبته سلطة سياسية"[2].

ولعل ما هو أخطر من ذلك على القيم الأخلاقية ذلك الاتجاه الذى نادى به بعض الفلاسفة المحدثين فى دعوته إلى أخلاق بلا إلزام، ومن هؤلاء على سبيل المثال "جييو" في كتابه "نحو أخلاقية بلا إلزام ولا جزاء"[3].

([1]). السابق نفسه: صـ٤،٥، ٥١٨

([2]). السابق: صـ٥١٦

([3]). محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق فى القرآن، ترجمة عن الفرنسية عبد الصبور شاهين، نشرة مؤسسة الرسالة، بيروت ودار البحوث العلمية، الكويت سنة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣، صـ٢١.

فإذا كان "الإلزام هو القاعدة الأساسية، والمدار الذى يدور حوله كل النظام الأخلاقى، فإن غيابه يؤدى بالضرورة إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاتـــه، وفناء ماهيتها"[1].

كانت تلك لمحات سريعة ومركزة عن الاتجاهـــات والمواقـــف الفلـــسفية المختلفة من القيم الأخلاقية، وبقى أن نشير إلى أهم هذه القيم فـــى الفلـــسفات والمذاهب التى نقرها وننزلها المنزلة الصحيحة فى حياة الإنسان.

أ. **العـــدل:**

يعرف العدل بأنه "الإرادة الراسخة والدائمة لاحترام كل الحقوق وأداء كل الواجبات". والعدل فضيلة فردية واجتماعية معًا.. فردية من حيث أنهـــا تـــدل على مزاج ذاتى خاص عند الإنسان "العادل"، واجتماعية من حيث أنها تراعى حقوق الغير، وتفترض بالضرورة تعدد الأشخاص، ولهذا يقول أرســـطو "إن العدالة، لما كانت تهم المجتمع المدنى، فإنها فضيلة بالنسبة للغيـــر، وليـــست فضيلة مطلقة. كذلك يقول أفلاطون فى كتابه "السياسة" (م٤ ص٤٣٤هـــــ – ٤٥٣أ) أنه لابد من حك النموذج الاجتماعى بالنموذج الفردى من أجل اطلاق شرارة العدل وفى محاورة "النواميس" (م٦ صـــ٧٥٧) يقول عن الكوســـموس (=الكون) أنه عدل لأنه تركيب منظم وإنسجام واتفاق.

يرى أفلاطون أن العدل ناتج الفعل المنسق لأجزاء النفس الثلاثة: الـــنفس العاقلة، النفس الغضبية، والنفس الشهوانية، فسلوك هذه النفوس الثلاث ســـلوكًا مستقيمًا سليمًا يؤدى إلى انسجام الكل، وهو العدل. ولهـــذا يقـــرر أحيانًـــا أن الفضيلة هى العدل وأن العدل هو الفضيلة مطلقًا لأنه يفترض وجـــود ســـائر الفضائل.

ومن هنا كان الغموض فى معنى العدل، كما لاحظ "دوبرئيل" بمعنـــى أن مضمون العدل هو من الثراء والتنوع بحيث يصعب إنطباق التعريف إلا على

([1]). السابق: صـــ٢١.

جزء من هذا المضمون، أولا يبدو أن التعريف المعطى كان للإنطباق على كل الاستعمالات التى استعملت بها كلمة العدل. وليس أمامنا إلا أن نسلم بهذا الغموض، ثم نأخذ فى تحليل المعانى التى تدل عليها فكرة العدل. وهنا نجد أن العدل ينقسم أول ما ينقسم إلى عدل استاتيكي، وعدل ديناميكي.

أما العدل الديناميكي فيكون فى مراعاة قاعدة مقررة، أيا كانت تلك القاعدة. فواجب العدالة أن تطبق قاعدة معترفًا بها. والعادل أو المنصف هو من يتمثل لهذا الواجب. ومثاله: القاضى الذى يطبق القانون بدقة، والمعلم يكون عادلًا إذا كان يعطى كل تلميذ ما يستحقه من درجات، ذلك لأنه يراعى القاعدة والقواعد المقررة للمسابقة (أو الامتحان). فالعدل الاستاتيكي، أو العدل بالمعنى الدقيق، يبدو إذن كأنه القاعدة التى تعلو سائر القواعد وتفرض مراعتها، جاعلًا من هذه المراعاة للقواعد واجبًا أخلاقيًا. وليس معنى هذا أن كل القواعد المقررة فى مجتمع ما هى بذاتها قواعد أخلاقية. فالتعليمات والقواعد المؤسسة علىالمصلحة أو المناسبة الخاصة، مثل الضريبة المفروضة على التركات، أو قواعد المرور، أو قواعد لعب الكرة –ليست من القواعد الأخلاقية بشيء. ولكن متى تقررت هذه القواعد فمن الظلم انتهاكها[1]. وأول تصور شائع للمثل الأعلى للعدل الديناميكي هو القول بأن العدل هو المساواة.

وهنا ينبغى أن نشير إلى التفرقة التى وضعها القديس "توما الأكويني" فى شرحه على كتاب "الأخلاق إلى نيقوماخوس" لأرسطو طاليس– التفرقة بين العدالة التعويضية Justice Commutative، والعدالة التوزيعية Justice Distributive أما العدالة التعويضية فهى التى تحدد العلاقات بين الأفراد وتقوم فى إعطاء كل ذى حق حقه مع مراعاة المساواة المادية فى التبادلات. وموضوعها الحقوق والواجبات الدقيقة، ويكون إنتهاكها بالقتل، أو سوء

([1]). عبد الرحمن بدوى: الأخلاق النظرية صـ٦٥ وما بعدها.

المعاملة، أو الكذب أو السرقة، أو الإهانة، أو الافتراء. وكل انتهاك لها يلـزم المنتهك بالتعويض.

أما العدالة التوزيعية فتنظم العلاقات بين المجتمع وكل فرد مـن أفـراده. والالتزام الرئيسى الذى تفرضه هو عدم التحيز أو النزاهة ويكـون إنتهاكهـا بالمحاباة فى توزيع الخيرات العامة، أو إتباع الهوى فى القسمة لها بين الناس. والعدالة التوزيعية ترادف المساواة[1]، ومن هنا كانت المساواة أمام القانون من الحقوق الأساسية فى المجتمعات المتمدينة، وذلك نـابع مـن معنـى العدالـة التوزيعية.

ويدخل فى العدالة التعويضية: احترام الأشخاص، احترام الحق (الـصدق) الوفاء بالوعود، والتعهدات والعقود (الأمانة)، الاعتراف بالجميل، الإنصاف.

هذا عن قضية العدل عند أشهر فلاسفة اليونان، فماذا يعنى فـى الفلـسفة الحديثة؟ فى القرن الماضى وطوال هذا القرن إلى يوم الناس هذا اختلط أمـر العدل على الناس، اختلاطًا شديدًا حتى أصبح لكل مذهب اجتمـاعى سياسـى فهمه الخاص لمعنى العدل، تحت عنوان: العـدل (أو العدالـة) الاجتمـاعى، ومداره خصوصًا على العدالة التوزيعية، والهدف الأساسـى منـه: تقريـب الفوارق الاجتماعية بين الناس، الناجمة إمـا عـن الطبيعـة (الفـوارق فـى الاستعدادات والمواهب والكتابات)، أو عن الأوضاع الاجتماعيـة المتوازنـة (الميراث، المكانة الاجتماعية للأسرة أو القبيلة أو الوالدين، النفـوذ الـسياسي والاجتماعى، المتولد من بنية المجتمع.... إلخ). ويهدف إلـى التوفيـق بـين حاجات الإنسان وقدراته، بين ما يحتاج إليه ومـا يـستطيع هـو أن يقدمـه للمجتمع، ويمهد تيسير الأسباب المؤذية إلى المساواة (مثل: التعليم، الـصحة، الثقافة العامة، الضمان عند الكوارث والأمراض والشيخوخة وما يدخل ضمن

---

(1). يلاحظ أن دورائل (ج٢ صـ٤٩٢) خلط بين العدالة التوزيعية والعدالـة التعويـضية، وظن أن المساواة هى العدالة التعويضية!

التأمين الاجتماعى بوجه عام... إلخ) تحقيق ظروف عامة لحياة متشابهة بالنسبة إلى الجميع.

ولكن العدل الاجتماعى لا يهدف، ولا يمكن أن يسعى إلى القضاء على الفوارق الطبيعية بين الناس، وكل ما يستطيع هو الحد من إساءة استعمال هذه الفوارق، وتنظيم الخيرات المشتركة، فالفوارق الطبيعية بين الناس، فى الذكاء، والقوة، والجمال، والطباع- أمور لا يمكن القضاء عليها، وهى بدورها تجر إلى فوارق أخرى: مثل الفروق في الثراء، وفى النجاح الاجتماعى، وفى النفوذ السياسى، وفى الشهرة بين الناس، وفى تحصيل المناصب الرفيعة والمكانة الاجتماعية المرموقة. ومن شأن هذه الفوارق أن يقوى بعضها بعضًا، بالثراء يسهل الوصول لى السلطة، والشهرة، والمكانة، والسلطة تيسر السبيل إلى الثراء والشهرة والتأثير فى الناس، بل وأحيانًا إلى خلق المكانة العلميةأو الفكرية أو الفنية!.

إن ما يسعى إلى العدل الاجتماعى الحق هو أن يعرض عن الضعف وعن الهزيمة وعن قلة الحيلة تجاه القوة والغلبة والاحتيال. وبفضل العدل أن يصير العنف ضعيفًا، واهى السلطان، متوترًا، مقسورًا.

ب. <u>العدل والتسامح:</u>

على أن هناك أمرًا خطيرًا خاصًا بالعدل فى تطبيقه، فإن التطبيق الصارم للعدل قد يتحول أحيانًا إلى ضده، أى إلى ظلم، والمتشدد فى طلب حقه أحيانًا يكون ظالمًا. ومن هنا جاءت العبارة: "أقصى القانون هو أقصى الظلم وتطبيق اللوائح" تطبيقًا أعمى ... ربما كان الظلم بعينه. ولهذا فإن العدل يقتضى أحيانًا الاستثناء، ويقارن "مارتن" بين الاستثناء الذى يطأ من شدة قواعد العدل.. بالعفو عن الأخطاء وغفران الذنوب. العفو يقلل من أهمية التلبس بالجريمة، كى يخلق هامشًا عريضًا لإمكان فعل ما هو أفضل، إنه يقلل من شأن اللحظة سعيًا وراء إعطاء الفرصة للمدة الطويلة.

ويدخل فى باب العفو أيضًا التسامح، كما يلاحظ "جنكفيتش" هو تناهى هذا العالم الممزق فيه يختلف الناس بعضهم مع بعض ومع ذلك يجب عليهم أن يجدوا الوسيلة للتعايش معًا، وهو-أكثر من هذا- التعارض الخلقى -الذى يمنعنا من توفير كل القيم فى وقت واحد، وتمزق الوجود بوجه عام، والتشتت فى القيم والاضطراب وسوء التفاهم الناجمان عن ذلك- كل هذه هى ماهية حالنا بوصفنا مخلوقين، والطابع الأساسى لهذا النشاز يمنع التسامح من أن يكون مجرد تساهل سطحى كسول، شبيه بعدم اكتراث إنسان يذر نفس أخيه لمصيرها، والتسامح مؤسسًا على هذا النحو يتميز جيدًا من كل أنواع التشكك، النسبية والهواية، والاستمتاع الجمالى العابث، والحياد السلبى، وتتخذ الاحتمالية بعد العمق والمأساة. ووراء تعدد الآراء الإنسانية نستشعر خلفية الشر الميتافيزيقي. ومع ذلك فإن التسامح له وجه سلبى، ذلك أن للتسامح خصائص ثلاثًا تجعل منه فضيلة صغيرة، وهى: ١-أنه سلبية بدون مضمون. ٢-أنه سلوك بدون باطنية، سلوك خارجى يمكن أن تكون النية فيه أنانية أى منافية للأخلاق. ٣- أنه فضيلة مشروطة، لأن قيمته تتوقف على الأمور التى نتسامح فيها[1]. وهكذا يمكن أن يؤخذ على فضيلة التسامح سلبيتها، وكونها ظاهرية قد تنطوى على أنانية وعدم أخلاق، وكونها مشروطة بشروط وليست مطلقة. كذلك قد يبالغ فى التسامح بحيث يكون غير معقول. فمثلًا هل يجب التسامح فى عدم التسامح والتعصب المقيت؟ هل يجب التسامح حتى مع الأشرار والسفاحين والطغاة بما أرتكبوا من مظالم وفظائع؟ لو قلنا ذلك، لجعلنا التسامح يناقض أصله. والأمر هذا كالأمر مع الحرية، هل نعطى الحرية لأعداء الحرية؟ ويجيب "جنكفتش" قائلًا: "الأفضل أن نرفض، بين الحين والحين، أن نعطى الحرية لقتله الحرية، ابتغاء الحفاظ على مستقبل الحرية بوجه عام"(جـ٢،

([1]). للمقارنة مع مفهوم العدل في الإسلام أنظر: الإسلام ومكارم الأخلاق لعشرة من المؤلفين المسلمين، صـ٨٢ وما بعدها.

صـــ٧٥). وإذن فليس كل تسامح حسناً. فالتسامح مـــع المجـــرمين والطغـــاة والأشرار وأكاذيبهم أمر ضار وشرير. وإنما يبرر التسامح إذا كـــان يتنـــاول حرية الآخرين فى عقائدهم وتعدد آرائهم، والتسامح احترام لإرادة الآخـــرين، ويستبعد عدم الاكتراث، كما يستبعد شدة الحرص على نجاة الآخرين.

جـــ. الشجاعة:

تقوم الشجاعة أساسًا فى ضبط النفس عند مواجهة الخطر وفى الظـــروف الأليمة، كما تقوم فى مواجهة الظلم والشر بالقول والفعل، وفى التغلب علـــى الصعوبات والأخطار التى تتجاوز المعتاد، وفى احتمال أشـــد الآلام بـــصبر وثبات. وتتألف الشجاعة من أربعة عناصر:

١. التطلع إلى جلائل الأعمال، لا من أجل الربح أو الشرف بل لمـــا فيها من سمو
٢. الجود: وهو الاستعداد لبذل كل غال في ســـبيل تحقيـــق جلائـــل الأعمال هذه.
٣. الصبر: أعنى عدم الجزع على المصائب، وعدم الفزع من المشقة أو المتاعب أو الأحزان أو المجهود أو طول المـــدة. إن المثـــابرة تتقدم دائمًا، والصبر لا يتراجع أبدًا. لكن الحكمة تدعو إلى المثابرة دون عناء والصبر دون جبن. وفى تحليل لوســـن (مبحـــث فـــي الأخلاق العامة، صـــ٥٣٥، طـــ٢، باريس ١٩٤٧) لشجاعة يقول إن جوهرها يقوم فى ديالكتيك انفعال يتـــضمن ثـــلاث لحظـــات: الأولى، هى جرثومة الشجاعة، وفيها تظـــل الـــشجاعة ســـرية، والثانية، فيها تتجلى الشجاعة فى الزمان والمكـــان علـــى أنهـــا مناضلة، وتؤثر فى التصميم، والثالثة، فيها يتجلى التقابـــل بـــين الموضوعية والذاتية فى سمو الضمير الشجاع، ويمكـــن تـــشبيه

الشجاعة بالقدر على البراعة[1]. وشجاعة النفس أقوى من شجاعة البدن وأفضل بآلاف المرات، فشجاعة سقراط وهو يتناول كأس سم الشوكران أعظم بآلاف المرات من شجاعة آجاكس الجامحة. والشجاعة توجد فى الأمراض وفى الألم وفى مخاطر البحر والجبل، وفى الأزمات الاقتصادية. وبالجملة فى كل مصائب الحياة. وتحتاج إلى الشجاعة فى ضبط العواطف والشهوات، وفى كبح جماح الغضب والانتقام، ويقول القديس توما إن "الشجاعة، وهى تنشد التغلب على الخطر لا تبحث عن الخطر، بل عن تحقيق خير العقل".

ومن ضروب الشجاعة، احتمال المسئولية، واتخاذ القرار، والاستعداد للتضحية، ولتحمل نتائج الأفعال، وفى هذا تقوم مأساة البطولة والاستشهاد فى عظمتها الأخلاقية. وعند نيتشه أن من الشجاعة أن نقول "نعم" -وبدون تحفظ- لكل المشاكل، لكل غرائب الحياة.. وهذا "النعم" الأعلى، هذا "النعم" المسرور المقول للحياة، هذا "النعم" المليء بالحمية، الحافل بالاندفاع، لا يناظر فقط أعلى المواقف، بل وأيضًا أعمق فهم للأشياء. ذلك الذى تسنده وتؤيده الحقيقة والعلم.. ومن أجل التقدم بعيدًا، وحسب قوتها، يكون التقدم نحو الحق.

د. العفة:

بوصفها فضيلة أساسية هى الاعتدال فى تناول لذات الحواس. لأنها، فى مدلولها العام، الشرط فى كل فضيلة، فلولاها لصارت الفطنة مكرًا ودهاء، والشجاعة تجاوزا للهدف، والعدالة نوعًا من الظلم، إنها تنظم الشهوات وتخضعها لحكم العقل. ومن أنواع العفة: الاعتدال في الطعام والشراب والمتعة الجنسية، والحياء والاحتشام مع الناس.

([1]). عبد الرحمن بدوى: الأخلاق النظرية، صـ١٧٨.

وأرسطو فى "الأخلاق إلى نيقوماخوس" يقول: "كما أن التلميذ يجب أن يطيع تعاليم أستاذه، كذلك يجب على قوة الشهوة أن تتبع العقل. ولذا يجب فى الاعتدال الرقيق بين الشهوة و (أحكام) العقل، كلاهما يهدف إلى الجمال الخلقى، وهكذا يشتهى المعتدل (أو العفيف) ما يجب عليه وعلى النحو الذى يجب عليه أن يشتهيه، وهذا أيضًا هو ما يقضى العقل باشتهائه".

فالعفة تهدف إلى اخضاع الشهوات والغرائز لضوابط العقل، وتحارب ضد الانهماك في الشهوات، وتسعى إلى تنظيم السلوك الظاهر والسلوك الباطن للإنسان[1].

هـ- الصدق والأمانة:

الصدق والأمانة يفهمان على معنى الاستعداد للإقرار بالحق والصدق فى الأخبار عما يعتقده ويشعر به حقًا دون أن يخدع غيره أو يخدع نفسه، وعلى الإخلاص فيما يفعل ويشعر به. وهى تضاد النفاق والرياء وكل ألوان الكذب وعدم الأمانة فى القول أو الفعل.

انها أكثر من مجرد الصدق Veracite لأن الصدق يستبعد الكذب فقط ولا يتجاوز ذلك، بينما الـSincerite تضيف إلى فضيلة الصدق كمالا إيجابيًا هو إخلاص المرء نحو نفسه، أعنى بأمانته مع نفسه بحيث يعترف بنقائصه وذنوبه وأغلاطه. وإخلاصه نحو الآخرين أو أمانته مع الآخرين للإقرار بذلك عند اللزوم ولكى يكون فى أقواله وأفعاله الخارجية متسقًا مع أحواله الباطنة.

إنها إذن الصدق مع الذات ومع الغير، والأمانة مع الذات ومع الغير، وأن يكون ظاهر المرء مثل باطنه، وأقواله معبرة عن حقيقة شعوره واعتقاده. إنها ضد: النفاق، والتظاهر بعواطف وأفكار ومقاصد لا توجد حقًا فى داخل النفس. ولها، مثلما لكل فضيلة، طرفا إفراط وتفريط: فالافراط يكون بالصراحة

---

(1). عبدالرحمن بدوى: الأخلاق النظرية، صـ١٨١. وقارن توفيق: فلسفة الأخلاق، صـ٨٦. وكذلك مصطفى حلمى: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام، صـ٤١.

الجارحة لمشاعر الآخرين. الفاضحة لمعايبهم بقسوة، ومن هنا قيل: "ما كل حقيقة بواجب أن تقال" والتفريط يكون بالمبالغة فى التحوط والتحفظ والتواء أساليب التعبير، مما يؤدى إلى النفاق أو إلى السذاجة والحماقة.

هذه الفضيلة تعنى الشجاعة فى أن يكون المرء أمينًا مع نفسه ومع الناس، صادقًا مع نفسه ومع الآخرين، وتواكبها العدالة لأنها تعطى -بالقول- لكل ذى حق حقه. "وهى ترفو فى الإنسان تمزق الضمير، ذلك أنها تعيد نوعًا من البراءة، براءة البالغين الواعين إنها إذن فى منتصف الطريق بين الشعور الكاذب. وهى نصف شعور بائس، وبين الشعور التام. وهو لا شعور مسترد. إنها الانتقال من الخليط إلى الصافى، من الشعور الشقى إلى الشعور السعيد، ومن الكذب إلى البراءة"[1].

وفضيلة الصدق والأمانة هى حضور الأنا فى مسئولية. "وثم صدق عند الأنانى والمجرم هو إعتراف ساخر بما يسعى للحصول عليه، لكن هذا الصدق محتوم عليه بالفشل، لأنه لا يمكن أن يعترف لنفسه بأنه يخون القيمة. ولهذا يجب أن نعرف الصدق ليس فقط بما يكون عليه الأنا، بل وأيضًا بما يسعى لأن يصيره. إن الصدق هو -من ناحية- صراحة: فالتحديدات التى تكشف عن الأنا تظهره كما هو، إنها شفافة، ومن ناحية أخرى فإن الصدق إخلاص لأن الأنا يجد فى نفسه المحبة التى بها يتحد مع القيمة التى ينشد خدمتها. والخلاصة أن الصدق هو قيمة الأنا فى حالة المحض، لكننا لا نصل، فى الواقع، إلا إلى درجة ما من الصدق، هى العلاقة بين ما يعرفه الأنا عن حقيقة نفسه العقلية وبين ما يعرفه عن قيمته، حتى أن الصدق يكون دائمًا إعترافًا بنقص الذات والمشاركة مع قيم ما. وبالصورة الأولى فإن الصدق هو روح الشعور بالذنب، وبالصورة الثانية هو روح الإحسان. ولو كان الصدق كاملًا، لإتحد الأنا التجريدى والأنا القيمة فى الأنا المطلق، الأنا فى ذاته الحقيقى، ولن يكون فى

([1]). ف. جنكلفتش: "بحث فى الفضائل" جـ٢، صـ٤٥٣، باريس، سنة ١٩٧٠.

الوسع التمييز بين الإرادة والتحليق وما دام الصدق يتحصل حين يتحد الأنا والقيمة، فإن أكبر جريمة ضد الصدق والأمانة، وأشد ما يفسدهما، هو الإهابة بأصفة القيم من أجل تبرير الأعمال الشريرة، كما يحدث حين يهاب بالاخلاص ابتغاء ضمن نجاح الخداع والمكر، وبالروح الوطنية إبتغاء خدمة الخيانة، وبالنظام ابتغاءفرض الاستعباد، وبالله لنصرة المصالح الشديدة الأنانية"[1].

هذه هى رؤية الفلسفة الحديثة للقيم الأخلاقية ويتضح منها أنها لم تزد فى تقرير هذه القيم عما قدمته الفلسفة اليونانية إلا بعض التفاصيل. والسؤال الآن: ما القيم الأخلاقية التى عنيت بها الوثائق الدولية لحقوق الإنسان؟

المبحث الثانى:
القيم الأخلاقية فى المواثيق الدولية لحقوق الإنسان

جاءت المواثيق الدولية لحقوق الإنسان بمثابة رد فعل لما يعانيه الإنسان من ظلم واضطهاد وتشريد وقتل، وقد بلغت هذه المعاناة ذروتها خلال حربين عالميتين وقعتا فى جيل واحد، وذهب ضحيتهما مئات الألوف، بل الملايين من البشر، ولم تكن الحروب وحدها هى مظهر ظلم الإنسان ومعاناته، وإنما كانت هناك شكال أخرى من الظلم وضروب من الاضطهاد التى تضيع معها كرامة الإنسان وحريته وتهدر بها حقوقه. وكأن ذلك من صنع الإنسان نفسه، فالإنسان هو الذى استرق أخاه الإنسان، وهو الذى فرق فى المعاملة بين الأبيض والأسود، وهو الذى شهر الإبادة والتصفية العنصرية إلى آخر أشكال الظلم التى يضيق عنها المقام. لكن الضمير الخير داخل بنى البشر لم يرتض أبدًا عدوان الإنسان على أخيه، فعمل جاهدًا لتقنين وسائل الحماية لإنسان من كل أشكال الظلم، وكان من نتائج هذا صدور "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان" عن الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ وقد تضمن هذا البيان

([1]). السابق، صـ١٨٨.

ثير من المباديء التى تقر أو تحمى مجموعة كبيرة من حقـوق وحريـات نسان الأساسية.

بعد هذا الإعلان صدرت مجموعة من المواثيق الدولية التى لها قوة الإلزام، ان من أشهرها الاتفاقية الخاصة بالحقوق المدنية والسياسية التى دخلت حيز فيذ منذ ٢٣ مارس سنة ١٩٧٦، والاتفاقية الخاصة بـالحقوق الاقتـصادية لاجتماعية والثقافية والتى بدأ تطبيقها منذ شهر يناير سنة ١٩٧٦[١].

وليس من هدفنا الدخول في تفاصيل هذه المواثيق والاتفاقات الدولية-عالمية يمية- والظروف التي أنتجتها وكشفت عن ضرورتها. إنما نقصد فحسب إلى رف على أهم القيم الأخلاقية التي عبرت عنها وتضمنتها هذه المواثيق. وهو جمله فيما يلي:-

حرية الإنسان:

في مقدمة المباديء الأخلاقية التي نص عليها الإعـلان العـالمي لحقـوق سان الاعتراف بالكرامة الإنسانية، وبالحقوق المتساوية لجميع البشر كأساس ورى لحرية الإنسان ففي ديباجة هذا الإعلان نقرأ: "لمـا كـان الاعتـراف رامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتـة أساس الحرية والعدل والسلام في العالم... وكان غاية ما يرنو إليـه عامـة ر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحـرر مـن الفـزع اقة.. فإن الجمعية العامة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وتأكيدًا على قيمة الحرية جاءت المادة الأولى من هذا الإعلان تقول:"يولـد ع الناس أحرارًا متساويين في الكرامة والحقوق، وقد وهبو عقلًا وضـميرًا،

صبحي عبده سعيد: الإسلام وحقوق الإنسان، مطبعة جامعة القاهرة، نشر دار النهضة

وعليهم أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء. وأكدت المادة الثانية من الإعلان هذه القيمة إذ نصت على أنه "لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان"[1]. وهكذا يكون التأكيد على حرية الإنسان في الإعلان العالمي سابقًا على تأكيد حقه في الحياة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن واضعي هذا الاعلان قد كانوا على وعي بأنه لا معنى للحياة بدون الحرية.

ب. قيمة الحياة وسلامة الإنسان:

من الطبيعي أنه لا معنى للنص على ضرورة أن تحفظ للإنسان حياته، لذلك ربط "الإعلان" بين حق الإنسان في الحياة وسلامته الشخصية، وحريته الكاملة وكرامته اللائقة به كإنسان، فلا يتعرض جسده "للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الحاطة بالكرامة" كما أنه لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ولا يجوز القبض عليه أو حجزه أو نفيه تعسفًا، وكذا لا يجوز التدخل التعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو العدوان على شرفه وسمعته أو مصالحه الأدبية والمادية المترتبة على انتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني، أو تجريده من ممتلكاته تعسفًا. ولا شك أن قيمة الحياة وحق كل إنسان فيها لن يكون لها معنى إلا في إطار هذه الشروط والمواصفات.

ج. العدل والمساواة:

إذا كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لم يهمل فضيلة العدل والمساواة فإنه مع ذلك يلاحظ عليه أنه لم يعط هذه الفضيلة الأخلاقية أو الحق الإنساني ما يستحقه بحسب جوانبه المتعددة، وقد كانت الفلسفة أوسع صدرًا وأكثر احتفاء

---

(1). للرجوع إلى نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أنظر الدكتور القطب محمد القطب: الاسلام وحقوق الإنسان، دراسة مقارنة، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، صـ٦٠٥ وما بعدها.

بهذه الفضيلة فعالجتها من كثير من جوانبها كما سبق بيان ذلك. وإذا راجعنا نصوص هذا الإعلان فيما يتعلق بالعدل والمساواة فإننا نراها قد ركزت على الجانب القانوني منها فقط، ففي المادة السادسة يقرر الإعلان أنه "لكل إنسان أينما وجد الحق بأن يعترف بشخصيته القانونية" وفي المادة السابعة نقرأ "كل الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة". وفي المادة العاشرة يقرر "الإعلان" أنه: "لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، فى أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرًا عادلًا علنيًا".

كل هذه النصوص تدلنا على صحة ما قدمنا وهو أن هذا "الإعلان" قد ركز -فيما يتعلق بالعدل والمساواة- على الجانب القانوني وأهمل بقية الجوانب التي كشفت عنها الفلسفة بطريقة أفضل، وفصلها الإسلام وحددها- كما سنرى- بطريقة لا نظير لها.

د. التسامح:

لم يرد في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هذا اللفظ "التسامح" إلا في عبارة واحدة سوف تأتي الإشارة إليها، وإنما ورد ما يفيد معناه من رفض التعصب للجنس أو اللون أو الدين أو نحو ذلك من أشكال العنصرية. ففي المادة الثانية من مواد "الإعلان" وهى الخاصة بحق كل إنسان في التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فيه، ويوصف هذا الحق بأنه مكفول لكل إنسان دون تمييز ثم لأشكال هذا التمييز بما ينشأ بسبب "العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي، أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد

أو أي وضع آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء"[1].

أما تعبير "الإعلان" عن قيمة التسامح بهذا اللفظ، فقد جاء في البند الثاني من بنود المادة السادسة والعشرين في عبارة مقتضبة تشير إلى ضرورة أن تهدف التربية إلى "تنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية والدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام"[2].

هـ. العلم والتعلم:

في المادة السادسة والعشرين من مواد الإعلان نص على أهمية العلم وإنتشاره وجعله متاحًا لكل إنسان دون تمييز. فالبند الأول من بنود هذه المادة ينص على أنه "لكل شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية، على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأولي إلزاميًا، وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع، وعلى أساس الكفاءة"[3].

وفضلًا عن هذه القيم أو الحقوق تضمن "الإعلان" حديثًا مقتضبًا عن حق العمل وعن بعض أشكال الضمان -ولا أقول التكافل- الاجتماعي، كما تضمن إشارات إلى حق الزواج والطفولة والأمومة والأسرة بلغة أقرب إلى الإنشاء منها إلى التأصيل والتحديد، وسوف نوضح ذلك بشكل أكثر تفصيلًا عند المقارنة بين ما جاء به الإسلام من قيم وحقوق وما طالعنا به الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

---

(1). راجع نص الاعلان العالمي لحقوق الإنسان في كتاب "الإسلام وحقوق الإنسان.."، للدكتور: القطب محمد القطب، صـ٦٠٩.

(2). السابق صـ ٦١٠.

(3). السابق نفس الموضع.

أولًا: القيم الأخلاقية في الإسلام:

١. الأخلاق ومكانتها في الإسلام:

مما لا شك فيه أن الإنسان عبر تاريخه الطويل على هذه الأرض لم يعرف دينا -سماويًا أو وضعيًا- يرفع الأخلاق إلى المنزلة التى رفعها إليها الإسلام، فالإسلام في جوهره دعوة إلى الخير لذات الخير، ودعوة إلى مكارم الأخلاق لأنها كذلك، وهو في نفس الوقت دعوة إلى اجتناب الشر بشتى أشكاله لأنه شر ينبغي أن يترفع المسلم عن اقترافه.

ومن الممكن أن نسوق بعض الأدلة على تلك المكانة العالية للقيم والفضائل الأخلاقية في الإسلام فيما يلي:

أولًا: أن الأخلاق الفاضلة تمثل الروح الذي يسرى في كل جوانب الدين الإسلامي، عقيدته وشريعته، عباداته ومعاملاته، وأنظمته المتعددة، سياسية واجتماعية واقتصادية، فالايمان -وهو رأس العقيدة الإسلامية- لا يكتمل إذا لم يكن محاطًا بسياج محكم من القيم الأخلاقية، ولذلك يكثر في القرآن الكريم الربط بين الإيمان والعمل الصالح، والربط بينهما وبين حب الله تعالى وحسن ثوابه لعباده ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾[1]، ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾[2]، ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾[3]، ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملًا﴾[4]. ومغزى هذه الآيات الكريمات وكثير غيرها في كتاب الله

---

(1). البقرة: ٨٢

(2). إبراهيم: ٢٣.

(3). الرعد: ٢٨، ٢٩.

(4). الكهف: ٣٠، ٣١ واقرأ في نفس السورة الآيات ١٠٧، ١٠٨.

عز وجل أن الإيمان –وهو رأس العقيدة– لا يكتمل دون التحلي بالقيم والفضائل الأخلاقية.

يؤكد ذلك من جانب آخر ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية مما يبين تمام الإنفصال والانقطاع بين الإيمان وارتكاب الرذائل ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ﴾، ﴿ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاءه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا﴾[1]، ﴿وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانًا، وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنًا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلًا منكم وأنتم تعرضون... إلى قوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشدّ العذاب..."[2].

أما ما ورد في السنة النبوية في هذا المعنى فكثير، وهى أحاديث صحيحة تنفى الإيمان، أو تنفي كمال الإيمان –عمن يقارفون الرذائل والفواحش، ومن أمثلتها قوله صلى الله عليه وسلم" "والله لا يؤمن –ذكرها ثلاثًا– قيل من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ... الحديث" ثم قوله: "لا إيمان لمن لا أمانة له".

فإذا اتجهنا إلى العبادات رأينا الإسلام –قرآنًا وسنة– يجعل الأخلاق الفاضلة شرطًا لصحتها وقبولها من جهة، ويجعل أداءها بذاته باعثًا على التحلي بمكارم الأخلاق، من جهة أخرى ففيما يتعلق بالصلاة نلتقى بقول الله عز وجل: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[3] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له". والأمر كذلك فيما يتصل بباقي

---

(1). النساء: ٩٢: ٩٣.

(2). البقرة: ٨٢– ٨٥.

(3). العنكبوت: ٤٥

الفرائض من صلاة وزكاة وصيام وحج، بل إن تنبيه الإسلام على أهمية الأخلاق يتعدى إلى المباحات، فإن من اعتدى عليه غيره -مثلًا- يباح له شرعًا أن يرد الاعتداء بمثله، لكن من يريد أن يرتفع إلى قمة السمو الأخلاقي عليه أن يؤثر العفو عمن ظلمه، ويتجلى هذا التخيير في قول الله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم له خير للصابرين﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله... ﴾[2].

وفيما يتعلق بالنظم الإسلامية نجد الإسلام يقيمها على أسس من الأخلاق والقيم الفاضلة، فالسياسة الإسلامية تقوم على قيم العدل والمساواة والشورى، ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[3]. ﴿إن الله يأمر باتلعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾[4] ويخاطب القرآن الكريم الرسول الحاكم بقوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾[5] ويصف المسلمين بقوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[6].

وهكذا لو تتبعنا سائر النظم الإسلامية لوجدنا القيم الأخلاقية حولها تمثل صمام أمان يحافظ على سلامة هذه النظم، ويجعلها قاعدة لصلاح الأمة ورقيها وازدهار حضارتها.

ثانيًا: يدل على علو منزلة الأخلاق في الإسلام كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قصر مهمة بعثته على تتميم مكارم الأخلاق، ففي الحديث الصحيح يقول (ص): "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، بل إن النبي (ص) قد سوى بين مفهوم

---

(1). النحل: ١٢٦.

(2). الشورى: ٤٠

(3). النساء: ٥٨

(4). النحل: ٩٠

(5). آل عمران: ١٥٠

(6). الشورى: ٣٨

الدين وحسن الخلق وجعلها شيئًا واحدًا، فقد روى أن رجلًا جاء إلى النبي (ص) بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: حسن الخلق، وكذلك قال له حين جاءه من قبل شماله"[1].

ثالثًا: يدل على ذلك ويؤكده أيضًا ما روى من أحاديث صحيحة تدل على أن الله عز وجل –وهو الذي أنزل القرآن الكريم– هو سبحانه من ربى نبيه صلى الله عليه وسلم على مكارم الأخلاق كم في قوله(ص): "أدبني ربي فأحسن تأديبي" ومن هنا كانت تمثل السيدة عائشة رضى الله عنها خلقه (ص) بالقرآن في قولها حين سئلت عن ذلك: "كان خلقه القرآن" وفي رواية "كان صلى الله عليه وسلم قرآنًا يمشى على الأرض".

فإذا أضفنا إلى ذلك كله وصايا النبي (ص) باتباع الفضائل الأخلاقية لتبين لنا إلى أى حد يعلى الإسلام من هذه الفضائل. ومن الصعب في هذا المقام أن تحدث عن القيم الأخلاقية في الإسلام بالتفصيل الذى جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية، فهذا أمر لا يتسع له المقام، ويكفى أن نقرر هنا أن الإسلام لم يترك خصلة من خصال الخير إلا نبه إليها وحث على التماسك بها. ولم يترك خصلة من خصال الشر إلا نبه عليها وحث على اجتنابها، وقد جمع ذلك كله تحت فضيلتين "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" كما بين ذلك قول الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...﴾[2] وقول النبي (ص): "أمر بمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة.... ". وتحت هاتين الفضيلتين تأتى القيم الإسلامية مفصلة ومستوعبة إلى أبعد حدود الاستيعاب حتى لا نجد فعلًا من أفعال الإنسان أو قولا من أقواله إلا وهو منصف تحت قيمة "الخير" أو تحت رذيلة "الشر" على نحو ما يبدو في مثل هذه الآيات

---

(1). عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق، دار الهانى ٢٠٠٥، صـ١٠. وفيه تخريجة للحديث الشريف.

(2). آل عمران: ١١٠

الكريمة: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، وأولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1]. ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلا تشركوا به شيئًا، وبالوالدين إحسانًا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلو أولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[2].

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا أنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. وأقم الصلاة طرف النهار وزلفًا من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للناكرين، واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[3]. ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما.... إلى قوله تعالى: ولا تقف ما ليس به علم، إن السمع والبصر كل أولئك كان عنه مسئول. ولا

---

(1). البقرة: ١٧٧

(2). الأنعام: ١٥١- ١٥٣

(3). هود: ١١٢- ١١٥

تمش فى تمش في الأرض مرحا إنك لم تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا...﴾[1].

وإذا تركنا هذه الفضائل الأخلاقية العليا التى تقررت في هذه الآيات -وهى كثيرة في القرآن الكريم- والسنة النبوية فإننا نلتقي مع فضائل أخرى تتعلق بما أطلق عليه بعض الفلاسفة فضيلة "العفة". لكن القرآن الكريم لم يتناول هذه الفضلية، تناول الفلاسفة، إذ لم يزيدوا على بيان أنها فضيلة تتعلق بقوة من قوى النفس وهى القوة الشهوانية. أما القرآن الكريم فقد تناوله بما تنطوى عليه من عفاف وحياء وحسن أدب واحتشام في القول والفعل والمأكل والملبس وغير ذلك من التفاصيل التي تنضوى تحتها.

فمن العفاف والحياء ألا يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان ثم يأتى بعد ذلك السلام على أهل هذا البيت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحدًا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم﴾[2]. ويدخل في هذه الفضيلة غض البصر وحفظ الفرج من الطرفين الذكر والأنثى ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحافظوا فروجهم... وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهم إلا ما ظهر منها...﴾[3]. ومما يدخل تحت العفاف والحياء كذلك الاحتشام في الملبس ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن..... إلى قوله تعالى: وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾. فأى فلسفة بشرية تناولت قيمة واحدة من القيم الأخلاقية مثل هذا التناول القرآني مع ضيق المقام عن ذكر كل ما ورد عنها في القرآن من تفاصيل في سورة

---

(1). الإسراء: ٢٣- ٣٨.

(2). النور: ٢٧- ٢٨

(3). النور: ٣٠- ٣١

النساء والنور والأحزاب والطلاق وفي مواضع أخرى غيرها. إنه حقًا "تنزيل من حكيم حميد"، وإنه ﴿ يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات إن لهم أجرًا كبيرًا﴾[1].

٢. القيم بين الإسلام والفلسفة ووثائق حقوق الإنسان:

يطيب لبعض الباحثين أن يتحدثوا عن المواثيق الدولية لحقوق الإنسان باعتبارها طفرة حضارية أكدت كرامة الإنسان وحقه في الحياة الحرة الآمنة المستقلة، ونسى هؤلاء-وبعضهم من المسلمين- أو تناسوا أن الإسلام قد أقر هذه الحقوق وأكدها بشكل أكثر استيعابًا وشمولًا مما تضمنته مواثيق حقوق الإنسان، وأن المسلمين قد عرفوا هذه الحقوق ومارسوها على أسمى ما تكون المعرفة والممارسة منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا.

من هنا تأتى أمية المقارنة بين القيم والمباديء الأخلاقية والحقوق الإنسانية كما عرفت فى الفلسفات المختلفة، وكما تقررت في المواثيق الدولية من جهة وبين ما جاء به الإسلام من هذه القيم والحقوق من جهة أخرى. ولا شك أن هذه المقارنة من الأهمية والسعة بحيث تحتاج إلى بحث مستقل، وحيث أن المقام لا يسمح فى بحث كهذا لعرض تفاصيل هذه المقارنة فإنا نوجزها في الوجوه التالية:

الوجه الأول:

أن القيم التي تضمنتها الفلسفات الأخلاقية، وكذا ما تضمنته منها وثائق حقوق الإنسان تعتبر محدودة جدًا إذا قيست بما جاء به الإسلام. فالفلاسفة منذ أفلاطون وأرسطو قد ركزوا -كما رأينا من قبل- على قيم الشجاعة والعفة والحكمة، وربطوا بين كل منها وإحدى قوى النفس، فالحكمة فضيلة القوة العاقلة من النفس، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية. وحين

---

(1). الاسراء: ٩

تتحقق للنفس هذه الفضائل الثلاث يتحقق لها التاسب والنظام فينتج عن ذلك فضيلة رابعة هى العدالة[1].

وقد زاد الفلاسفة المحدثون قيمًا أخرى هى: التسامح والصدق والأمانة، والمحبة والإحسان[2]. ومعظم هذه القيم قد احتلت مكانًا في المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، لكنها مع ذلك ظلت في الحالتين –الفلسفة الأخلاقية ومواثيق حقوق الإنسان– قاصرة عن الوفاء بمتطلبات النفس الإنسانية، وتعاملت معها من جانب وقصرت في جوانب.

أما في حالة الإسلام فإن شريعته الأخلاقية قد جاءت من لدن خالق الإنسان سبحانه وتعالى، وهو العالم بكل خفايا النفس الإنسانية وعللها وأسباب صلاحها، لأنه خالقها ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[3].

من أجل ذلك جاءت القيم الإسلامية متصفة بالشمول والاستيعاب لكل أحوال النفس الإنسانية، وفي مختلف الظروف التى تكون فيها. وقد رأينا من قبل مثال ذلك عند الحديث عن فضيلة "العفة" وتبينا أنها شملت جوانب وأحوالًا كثيرة للإنسان يعز على أي فكر بشري احصاءها.

ويمكننا أن نجد ذلك الفارق أيضًا في حديث الإسلام عن قيمة العدل حيث فرع الحديث فيه إلى عدل الإنسان مع نفسه، ومع جيرانه، ومع والدته، ومع أبنائه وزوجاته وشركائه، ومع مجتمعه بل ومع أعدائه، وحتى مع الحيوان الأعجم، ثم فرع الحديث فيه من جهة أخرى إلى العدل السياسي، عدل الحكام مع المحكومين والتسوية بينهم في الحقوق والواجبات، والعدل القضائي، والعدل الاجتماعي بكافة أشكاله وكذلك فرع الإسلام الحديث عن العدل إلى الكلام عن نقيض العدل وهو الظلم بشتى أشكاله فبين أن الله سبحانه لا يحب الظلم ولا

---

(1). مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام، صـ٣٩ وما بعدها.

(2). عبد الرحمن بدوي: الأخلاق النظرية، صـ١٦٥ وما بعدها.

(3). الملك: ١٤.

يرضاه لعباده وأنه جرم الظلم عن نفسه ونهى عنه جميع خلقه[1]. وكل هذه التفاصيل التفاصيل التي أوردها الإسلام لواحدة فقط من القيم الأخلاقية لها في القرآن الكريم والسنة النبوية أدلتها الواضحة التي يضيق المقام عن ذكرها. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن ما كتبه الفلاسفة الأخلاقيون، وما سطره فلاسفة السياسة في مواثيق حقوق الإنسان لا يعدل ما تضمن تراث المسلمين وما كتبه علماؤهم حول فضيلة واحدة من الفضائل الأخلاقية.

الوجه الثاني:

وفضلًا عن اتساع مجال القيم في الإسلام وشمولها لكل فعل من أفعال الخير، فإنها تختلف كذلك عما قدمته المختلفة والمواثيق الدولية من حيث ثباتها واطرادها وقابليتها من كل عقل سوى لم تشوه فطرته الأهواء الذاتية والأغراض والمصالح الشخصية أما الفكر البشري فهو بطبيعته قابل للتطور والتغيير كما أنه قابل للاختلاف حول مضمونه، بل أن الاختلاف حوله قد يكون هو القاعدة وتاريخ الفلاسفة شاهد على ذلك وقد رأينا -كما سبق- كيف كان الخلاف بين الفلاسفة حول القيم الأخلاقية فمن قائل بثبات هذه القيم واطلاقها، من قائل بنسبيتها وتغييرها كما يتجلى في الخلاف المشهور بين أنصار الفلسفة المثالية وأصحاب المذاهب الواقعية وحتى داخل الاتجاه الفلسفي الواحد يبرز الخلاف حول المبدأ الأخلاقي ومصدره كما رأينا من قبل.

وفيما يتعلق بمواثيق حقوق الإنسان فإنها -كفكر بشري- تعرضت للخلاف حولها فتعصب البعض لاعطاء الأهمية والأولوية للحقوق السياسية ورأي آخرون الأولوية للحقوق الاقتصادية، بخلاف موقف الإسلام الثابت من جميع القيم والحقوق الإنسانية[2].

---

(1). لمزيد من التفصيل يرجع إلى محمد عبدالله دراز: "دستور الأخلاق في القرآن".

(2). صبحي عبده سعيد: الإسلام وحقوق الإنسان، مطبعة جامعة القاهرة، ١٤١٥هـ، صـ٦ وما بعدها.

الوجه الثالث:

إن القيم أقرها الإسلام وقررها ليست منحة من حاكم ولا من منظمة وطنية أو اقليمية أو عالمية وإنما هى حقوق أزلية فرضتها الإرادة الإلهية فرضًا كجزء لا يتجزأ من نعمة الله على الإنسان حين خلقه فى أحسن صورة وأكمل تكوين﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[1].

أما القيم والحقوق الإنسانية المضمنة في الوثائق الدولية والاقليمية فهى جهد بشرى سبقته معاناة إنسانية لا يحصرها الوصف من قتل وتشريد واذلال للإنسان كما جاء بعضها كمنة من "منظمة أو حكومة أو حاكم فرد على الإنسان بعد مماطلات قد تجر في معظم الأحيان إلى مظاهراتٍ وربما إلى ثورات فيجد الحاكم أو الحكومة أو المنظمة أنها مضطرة في مواجهتها للرضوخ لمطالب الشعوب فتمن عليها بإعلان ورقي حقوقًا لا تجد النور في غالب الأحيان"[2]. لهذا كان لفارق كبيرًا بين هذه الحقوق وبين ما قرره الإسلام الذى هو تشريع من الله سبحانه الخالق لإنسان والمحيط علمًا بكل ما يحتاج إليه هذا المخلوق في مسيرة حياته على هذه الأرض.

الوجه الرابع:

إن القيم والحقوق الإنسانية التي توصل إليها الإنسان بعقله والتي كتب عنها الفلاسفة الأخلاقيون وفلاسفة السياسة والمصلحون تعتبر قيمًا عليا لا يصح لعاقل أن ينكر سموها وأهميتها ومع ذلك فإنها حين تقارن بقيم الإسلام يظهر هزالها لسبب بسيط وواضح للجميع وهو أنها لا تملك ضمانات تطبيقها على واقع الإنسان.

فبالرغم من "عشرات الإعلانات والمواثيق الدولية التي صدرت على امتداد السنوات التى مرت منذ صدور الإعلان العالمي وحتى الآن.... إلا أن ذلك كله

([1]). التين: ٣

([2]). فيصل شطناوي: حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني، صـ٢٩.

لم يمنع وقوع الاعتداء على حقوق الإنسان فالمشاهد من الواقع المتردي لحقوق الإنسان أن هناك وفي شتى بقاع الأرض... إنتهاكات صارخة تقع جهارًا على هذه الحقوق.."[1]. ولا أظننا بحاجة إلى التدليل على هذه الحقيقة، ففي واقعنا العربي الإسلامي المعاصر من هذه الانتهاكات ما لايحتاج إلى برهان وهو ما يدل دلالة واضحة على أن هذه القيم والحقوق لا تتوفر لها ضمانات التطبيق على الواقع الإنساني من جهة كما أنها -من جهة أخرى- تحولت إلى أداة تستخدمها القوى الكبري قوى البغى والعدوان لتحقيق أطماعها وأهدافها في استغلال الشعوب والسيطرة عليها والتحكم في ثروتها ومصائرها.

يكفى أن نشير هنا إلى أنه تحت شعار الحفاظ على الأمن والسلام العالمين، قد تم تدمير العراق شعبًا وأرضًا وهوية وحضارة على مسمع العالم كله وهو العالم الذى لا يمل من وصف نفسه باسم "العالم المتحضر". وقد عجزت قيم الفلسفة الأخلاقية وقيم حقوق الإنسان -وفي مقدمتها في الجانبين- قيمة "العدل" عجزت عن حماية شعب العراق من هذا الظلم الذى فاق ظلم "التتار". ولذا كان صحيحًا تمامًا قول أحد الباحثين "إن قضية حقوق الإنسان انطبق عليها في طثير من الأحيان القول المأثور عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه بأنها "كلمة حق أريد بها باطل"[2].

وبعد فإن باب المقارنة بين الجانبين -قيم الإسلام وقيم الفلسفة وحقوق الإنسان- ما زالت تحتاج إلى الكثير لا سيما عن شكل الخطاب الإسلامي ومنهجه في تقرير القيمة الأخلاقية وتبريرها بما يقنع عقل المخاطب ويرضى نفسه ووجدانه وكذلك طبيعة اللغة التي استخدمت في هذا الخطاب إضافة إلى أن قيم الإسلام قد تجسدت في نموذج واقعي حي عاشه المسلمون في العصور الأولى من تاريخ الإسلام

([1]). صبحى عبده سعيد: الإسلام وحقوق الإنسان، صـ٩

([2]). فيصل شطناوي: حقوق الإنسان والقانون الدولي الإسلامي، صـ١١.

الخاتمة:

تناول هذا البحث بالتفصيل مجموعة القيم التي قررتها فلسفة الأخلاق والفلسفة السياسية التي وضعت نصوص الوثائق الخاصة بحقوق الإنسان، ثم قارن البحث بين هذه القيم والقيم التي جاء بها الإسلام ليخرج من هذه المقارنة بالوجوه التي تتميز بها القيم الإسلامية عما جاءت به الفلسفة ومواثيق حقوق الإنسان، وانتهى البحث من ذلك إلى عدد من النتائج التى يمكن إيجازها فيما يلي:-

أولًا: إن فاعلية القيم الفلسفية والحقوقية وتأثيرها فى إسعاد الإنسان تعتبر – برغم أهميتها- محدودة، لأنها فكر طائفة محدودة لم تتأصل في أعماق الإنسان كفرد، ولم تتعمق فى وعى الجمهور من الشعوب، ذلك الوعى الذى ينفر فى مجمله من الفلسفة بشقيها الأخلاقى والسياسي.

ثانيًا: إن هذه القيم لا تعدو مجرد كلمات سطرت فى بطون الكتب والمواثيق الدولية، ولا تمتلك من القوة العاطفية والوجدانية ما يدفع الإنسان إلى الحرص عليها، والتمسك بها، بخلاف القيم التى جاء بها الإسلام فى لغة سهلة بسيطة يمكن أن يفهمها الفرد العادى، فضلًا عن أنها تخاطب العقل والوجدان ومجموع طاقات الإنسان النفسية والعقلية، وهو الأمر الذى يمنحها قوة التأثير والإقناع.

ثالثًا: أن القيم الأخلاقية فى الفلسفة وفى نصوص حقوق الإنسان قد صيغت بشكل تقريري مجرد عن البواعث والمبررات التفصيلية التى تكشف عن جانب المصلحة الإنسانية فى العمل بها.

رابعًا: أن هذه القيم وتلك الحقوق هى نتاج فكر بشرى يرد عليه ما يرد على فكر بشرى الخلاف والتناقض والقبول والرفض والاستحسان والاستهجان وتاريخ الفكر الإنسانى شاهد على ذلك منذ أقدم عصوره، وحتى يومنا هذا. فالخلاف حول هذه القيم وتلك الحقوق بين فلاسفتها أنفسهم يضعف دون شك من التحمس لها والحفاظ عليها، ولذلك تقع المخالفة لها فى الكثير من الأحيان، والتاريخ

المعاصر -فضلًا عن السابق- يسجل الكثير من المخالفات لمباديء وقيم حقـوق الإنسان حتى من أولئك الذين يزعمون أنهم هم حماتها. أما قيم الدين فهى محـل اتفاق جميع المؤمنين بهذا الدين، وكل واحد منهم يكلك الاستعداد للتضحية بنفسه من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل، وهذا راجع بالطبع إلى قوة الإيمان بـالله تعالى، والإيمان بأن الله سبحانه مطلع علينا وعلى كل أفعالنا وأقوالنا ومحاسبتنا عليها، ومجازينا ثوابًا أو عقابًا.

والحمد لله رب العالمين،،،

* * * * *